الفصل الخامس

السير إلى الله

كل شيء فى الكون فى حالة حركة وسير . . من الذرة إلى المجرة . . ومن البعوضة إلى الإنسان .

« كُلٌّ يَجْرِى لأجَلٍ مُسَمًّى » .

(الرعد : ٢)

« وكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » .

(يس : ٤٠)

ذلك السبح الدائم المستمر هو سمة الكل . . تشهدها فى الميكروب المتناهى الصغر وتشهدها فى سبح النجوم فى السموات .

هى طبيعة . .

وطبيعة الحركة فى الكون تشير إلى هدفيه كلية تثير العقل والتفكير .

يقول أينشتين : إن الله لا يمكن أن يكون لاعباً نرداً بالكون .

ويقول القرآن :

« وَما خلقْنا السَّماءَ والأرْضَ وما بَيْنَهُما لاعِبِينَ » .

(الأنبياء : ١٦)

هو إذن قانون وناموس ونظام مقرر وليس لعباً والإنسان ضمن هذه المنظومة الهائلة المتحركة يتحرك هو الآخر ولا يكف عن السير . وإذا كنا لم نستطع أن نكتشف إلى الآن القانون الموحد لحركة الكون (هو في نظر أرسطو سير إلى الله) فنحن نعلم على الأقل قانون حركتنا نحن البشر . وأننا منطلقون بشوق لايهدأ نحو بلوغ الكمال والمثل الأعلى . . وليس المثل الأعلى ولا الكمال المطلق إلا لله :

« وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّموات والأَرْضِ » .

(الروم : ٢٧)

فنحن سائرون إلى الله أدركنا ذلك أم جهلنا وآمنا أم أنكرنا . . الكل سائر طوعاً أو كرهاً .

« يَاأَيُّها الإنْسانُ إنَّكَ كادِحٌ إلى ربِّكَ كَدْحاً فمُلاقِيهِ » .

(الانشقاق : ٦)

والعارف هو الذى يدرك ذلك ويسعى إليه اختيارياً ويباشره بوعى وقصد ذلك هو العارف الكامل الذى اختار السير بكرامة على السير بالعصا .

ومن هؤلاء من يسير هرولة .

ومنهم من يسير وثباً .

ومنهم الطائر الذى اكتشف أن الاستقامة أقصر الطرق وأن الصراط المستقيم أقصر الخطوط إلى مولاه . . وهؤلاء هم أهل الله الذين خلعوا قُمُص التأجيل وشمروا السواعد وكسبوا أعمارهم بالموافقة ، ولم يضيعوها فى المخالفات .

ونسمع من هؤلاء ما يقولون عن طريق السير ومنازله وعلاماته ومنهجه .

ونختار واحداً من عظام المهاجرين إلى الله هو الصوفى العارف محمد ابن عبد الجبار بن الحسن النفرى (وهو الذى كتبت عنه كتابى رأيت الله) يقول النفرى إن مبتدأ الرحلة هو خلع النعلين :

« فاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ المُقَدَّسِ طُوًى » .

(طه : ١٢)

والنعلان هما النفس والجسد .

والمعنى المراد هو التجرد (التجرد عن النفس والجسد والانخلاع من النفس والجسد) .

يقول له ربه :

« أنا الله لايدخل إلى بالأجسام ».

كيف تخرج من جسمك وأنت فى جسمك ؟ وكيف تخرج عن نفسك وأنت فى نفسك دون أن تقع فى رهبانية خاوية وزهد فارغ مبتذل ؟ ! هذه رحلة النفرى الغريبة والمثيرة .

وأول انخلاع لك عن نفسك وجسدك هو توبة من جميع الذنوب والمخالفات . . توبة نصوح واستغفار صادق وتوجه سليم لا غرض فيه سوى بلوغ الحق لوجه الحق . . ثم تأخذ أول قطار . . فلا بد لكل رحلة من قطار. وأول قطار هو العلم .

والعلم عند النفرى مطية ودابة تركبها لهدفك والخطر كل الخطر أن تركبك هى وتقودك وتجعل من نفسها هدفاً لك .

والعلم لا يصلح هدفاً (فهو مجرد تحصيل المعلومات الجزئية عن الأشياء وروابطها وعلاقاتها) وذاك هدف المحجوبين من العلماء الذين

وقفت همتهم عند إدراك الأشياء وعلاقاتها . . وهم الذين قال عنهم القرآن :
« يَعْلَمُونَ ظاهراً مِنَ الْحياةِ الدُّنْيا وهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ » .
(الروم : ٧)

أما أصحاب الهمم العالية فالعلم عندهم وسيلة إلى غاية أخرى هى المعرفة .

والمعرفة عند النفرى غير العلم ، فالعلم تنتهى حدوده عند إدراك الجزئيات والمقادير والعلاقات بين الأشياء والقوانين التى تربطها .

ومنتهى العلم أن نكتشف أن جميع الأشياء الحى منها والميت مخلوقة من خامة واحدة ومركبة بخطة واحدة فكلها بدأت بذرة بسيطة هى ذرة الأيدروجين ، انفرطت وأعيد تركيبها داخل الأفران النجمية الهائلة إلى عديد من التواليف هى ذرات العناصر الـ ٩٣ ومن أحد هذه العناصر ، وهو الكربون نشأت المادة الحية ومنها جاءت عائلة الأحياء كلها .

ثم إن هذه الأحياء من نبات وحيوان وانسان بنيت أيضاً بخطة واحدة وأسلوب واحد فهى من خلايا متشابهة فى الجميع تتنفس وتتكاثر وتتحرك وتتغذى وتطرد مخلفاتها بطرق واحدة وبأعضاء متشابهة وأجهزة متشابهة وقوانين متشابهة ، ثم هى تموت وتتعفن وتتحلل إلى تراب بتحولات كيمائية واحدة .

وإذا كان الكون بكافة صوره وتواليفه مخلوقاً من خامة واحدة على مقتضى خطة واحدة وأسلوب واحد وقوانين واحدة . . فخالقه بداهة لابد أن يكون واحداً .

وهذا منتهى ما توصلنا إليه رحلة العلم .

ونشد رحالنا بعد بلوغ هذا المدى إلى ذلك الواحد محاولين أن ندركه .

وهنا نكتشف أن دابة العلم لم تعد تصلح لسلوك باقى الطريق ، فنحن أمام حقيقة لايمكن إدراكها بالحواس ولا رصدها بالمجهر ولا قياسها بالبرجل .

إن الواحد الذى نطلبه هو فوق إدراك وسائل العلم ومتعال على الحواس ، وهو من وراء الأسماع والأبصار .

وهنا لابد أن نغير المطية ونستبدل المواصلة ونودع قطار العلم ، فلن يعود للعلم جدوى فسوف نخرج من عالم الجزئيات من عالم الأشياء (عالم الملك والملكوت) إلى عالم الكليات وهو العالم الإلهى (الجبروت) .

ولن تجدى الحواس ولا المنطق العقلى ولا التحليل العقلى ولا الأدوات المعملية فى إدراك العالم الإلهى فلابد من الخروج من ذلك القطار العاجز الذى اسمه العقل والمنطق العقلى والحواس الخمس ، ومن العلم ووسائله ومختبراته إلى مرحلة جديدة يسميها النفرى . . المعرفة . . ويفرق بين العلم والمعرفة بأن العلم يبحث فى الكون ، والمعرفة تبحث فى المكوِّن . . العلم بحث فى الأشياء المتعددة ، والمعرفة تبحث فى الواحد . . العلم يبحث فى المادى ، والمعرفة تبحث فى الغيبى . . ولهذا كانت وسائل العلم : المسطرة والبرجل والمجهر والتلسكوب والحواس الخمس والتحليل العقلى ، أما وسائل المعرفة فهى القلب والبصيرة والوجدان الصوفى .

ولا يمكن البدء فى رحلة المعرفة إلا بالخروج من قطار العلم وقيوده وضوابطه من عقل ومنطق وحواس وأدوات مادية ، وهذا يستلزم التجرد من العالم المادى كله .

ولكن العالم المادى هو معشوق النفس ومجالها .

وما العقل والمنطق والعلم إلا خدام النفس ومطاياها للتسلط على هذا العالم المادى وحيازته وامتلاكه وتكريسه لإشباع أهواء النفس وملذاتها .

ولهذا كان لا خروج من أسر الحواس ولا خروج من حدود العقل ولا خروج من سيطرة العالم المادى إلا بالتجرد عن النفس وهزيمتها وقمعها وإخضاعها وتكميمها وقيادتها .

وهو ما يسميه النفرى بالخروج من النفس أو عبور النفس وتجاوزها ، ويلخص هذا العبور فى كلمات قليلة بليغة .

اخرج من نفسك ، اخرج من همك ، اخرج من علمك ، اخرج من عملك ، اخرج من اسمك ، اخرج من كل ما بدا (أى من مغريات العالم المادى كله) .

وماذا بعد ذلك .

يكون مطلوبك هو الله .

ومقصودك هو الله .

وهمك هو الله .

وذكرك هو الله .

ونطقك هو الله .

وفكرك هو الله .

وتلك أمور لها علامات ولا تكفى فيها الخلوة والتسابيح .

فعلامة خروجك عن نفسك أن تبذلها للآخرين إنفاقاً وعملا صالحاً وبراً ومودة وجهاداً وقتالا واستشهادا فى سبيل الله .

وعلامة خروجك عن علمك ألا تقول أنا عرفت أنا اكتشفت أنا وصلت ، وإنما تقول الله عرفنى كذا . الله أفهمنى كذا . الله ألهمنى كذا.

وعلامة خروجك عن عملك ألا تقول أنا عملت أنا أنجزت أنا بنيت أنا أنشأت ، وإنما تقول إن الله وفقنى إلى كذا وأعاننى على كذا وساعدنى على كذا .

وعلامة خروجك عن اسمك ألا تجرى خلف شهرة ولا تسعى إلى منصب ولا تطلب جاهاً ولا تلتمس لنفسك تميزاً وتسلطاً على الآخرين .

وعلامة خروجك عن المغريات المادية ألا تعود للفتنة والملذات سلطة عليك وأن تلزم الطاعة والمنهج والشريعة لا تتعداها إلى شبهة أو حرام .

وعلامة طلب الله ذكراً وفكراً هى الاجتهاد فى العبادة والإقبال عليها حتى تصبح العبادة هوى لا تكليفاً .

وهذا السلوك هو عدتك ووسيلتك لتنوير بصيرتك لتصبح قادراً على تحصيل المعارف الجديدة عن الله وقابلا للتلقى منه والفهم عنه .

لابد لك من العمل بما تعلم ليعطيك الله علم ما لا تعلم .

وبدون سلوك لا معرفة .

ويقول الصوفية فى لغتهم إن هذا السلوك ضرورى لإعداد المحل وذلك بالتخلية والتحلية ، (تخلية القلب من الأخلاق الذميمة وتحليته بذكر الله) وبذلك يصبح المحل قابلا وصالحاً لتلقى الإشراقات والمعارف الإلهية .

والبحث فى الله يبدأ بالبحث فى الأسماء والصفات والأفعال ، ثم ينتهى إلى الذات فلا فعل للأسماء الإلهية ولا للصفات الإلهية إلا بالذات الإلهية .

الذات هى التى لها القيومية والصمدية والأحدية والاحقية وبها

يكون للأسماء وجود وأثر .

وما الأسماء إلا متعلقات الذات وهى من قبيل الوجود الممكن ، أما الوجود الواجب الحق فهو للذات وحدها .

وببلوغ رحلة المعرفة إلى الذات تنتهى المعرفة إلى العجز كما انتهى العلم إلى العجز من قبل ، ويدرك العابد عجزه وحيرته كما يدرك أن عجزه عن الإدراك هو عين الإدراك ، فهو أمام ما ليس كمثله شيء .

وهنا يلزم تغيير المطية واستبدال المواصلة .

يلزم الخروج من المعرفة كما خرجنا من العلم إلى مرحلة جديدة يسميها النفرى . . الأدب . . ويسميها فى مكان آخر . . الوقفة . . حيث لا سبيل إلى انتقال . . وحيث انتهى الطريق إلى الغيب المطلق .

وهنا يقول النفرى إنه يلزم الخروج من الحرف ومن كل ما يحتوى عليه الحرف (الحرف يحتوى على كل العلوم والمعارف والخواطر والعبارات والمعانى) .

اخرج من الحرف والمحروف .

وبخروج العابد من الحرف والمحروف يخلو قلبه من الخواطر والعبارات والمعانى والحقائق الحسية الأرضية بأكملها ويتطهر لينجلى الله عليه .

وهنا تأتى مرحلة الرؤية . . والحضرة . . والتجليات فى هذه الحضرة مما لا يقال . . ومما لا يوصف بعبارة .

ولا مدخل إلى هذه الحضرة إلا بخلع النفس تماماً .

ويقول الله لعبده فى تلك اللحظة من التجرد الكامل :

ليس بينى وبينك أنت .

ليس بينى وبينك بين .

أنت منظرى .

لا ستور مسدلة بينى وبينك .

أنت تلينى وكل شىء فى الكون يأتى بعدك .

أنت فى هذا المقام لا يستطيعك الكون ولا تقوى عليك جنة ولا نار .

وهو مقام الخلافة العظمى التى يكون فيها للعبد ربانية على الأشياء . . ويكون هو العبد الربانى الذى قال عنه القرآن .

« وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكنَّ اللهَ رَمَى » . (الأنفال : ١٧)

ويقول عنه فى الحديث القدسى :

« عبدى أطعنى أجعلك ربانياً تقل للشىء كن فيكون » .

وفى حديث قدسى آخر .

« تسمع بسمعى وتبصر ببصرى وتبطش بيدى » وهو مقام عيسى عليه السلام حينما أحيا الميت بإذن الله ، وحينما نفخ فى الطين ليكون طيراً فكان طيراً بإذن الله .

ومقام محمد عليه الصلاة والسلام حينما رمى برمية الله (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) ويقول النفرى إن العبد يفعل فى تلك اللحظة بذات الله لا بذاته ، فقد غاب عن ذاته وقمعها وأسكتها وردها لخالقها .

ولهذا يعتبر النفرى أن الخروج من النفس ومن أسر العقل هو الخروج من الخطر ويقول له ربه وقد خرج من الاثنين .

لقد خرجت من الخطر :

ولا خروج من العبودية أبداً خلال هذه المراحل ، وإنما هناك مزيد من

العبودية فى كل مرحلة .

وفكرة العبد الربانى عند النفرى لا تعنى أبداً أى خلط بين العبودية والربوبية ، ولا تعنى خروج العبد من عبوديته . ولا تعنى إضفاء صفة الخالقية على المخلوق فى ذاته . وانما هو فضل من الله وقوة يفيضها الله على العبد المقرب بإذنه .

يقول الله لعيسى :

« وإذْ تَخْلُق مِن الطِّين كَهَيْئَة الطَّير بإذْنى فَتَنْفُخُ فيها فَتكُونُ طَيراً بإذْنِى وتُبْرِئُ الأكْمهَ والأبْرَصَ بإذْنِى وإذ تُخْرِجُ المَوْتَى بإذْنى » .

(المائدة : ١١٠)

فكل ما يحدث إنما يحدث بالإذن الإلهى . . ولا يصح أن نخلع عن العبد عبوديته أبداً إنما هو مجرد ارتفاع إلى رتبة شرفية من رتب العبودية تتم فيها الخلافة ويصبح العبد فيها خليفة حقًّا وحاملا لأختام الملك ومنفذاً للأوامر بإذنه وهذه هى مرتبة العبد الربانى .

وهذه الحالة من القـرب من الله (حالة قاب قوسين أو أدنى) هى حالة غيبوبة وذهول تتوحد فيها الجوارح فيصير سمع العارف بصره وعينه أُذنه ويعود أوله آخره وآخره أوله وينشق عن جسده الضريح وتتروحن جميع أعضائه وخلاياه ويلطف ويختفى ويصبح نوراً فى نور . . وهى حالة من الصفاء والنورانية والعلوية تسكر صاحبها وتذهله فيخيل إليه أنه الله .

ومن هنا جاء هذا التخليط والشطح الذى امتلأت به كتب الصوفية والكثير العجيب مما نطقوا به فى تلك الحالات .

« سبحانى ما أعظم شانى » **البسطامى** .

« أنا الحق » . . « أنا الله » . . « ما فى الجبة إلا الله » **الحلاج** .

« إذا عرفت الله فما عرفت سواك » **ابن عربى** .

« هل فى الدارين غيرى » **الشبلى** .

أأنت أم أنا هذى العين فى العين حاشاى حاشاى من إثبات اثنين

ابن عربى

« لا فرق بينى وبين ربى إلا أنى تقدمت بالعبودية » .

« أنا أصغر من ربى بسنتين » .

وكل هذا وأمثاله هو من صنوف التخليط والهذيان مما لا يصح الوقوف عنده . . وقد أدانه أصحابه فقال ابن عربى عن هذا الكلام إنه سوء أدب وسقوط عن رتبة التمكين ، واستعاذ بالله من الخذلان وسوء الخاتمة . . وتبرأ فى مقدمة الفتوحات من أى كلمة تخرجه عن العبودية والافتقار والذل والمسكنة لربه . . وتبرأ تماماً من أى قول بالحلول أو الاتحاد أو التجسد .

وللمكزون السنجارى أشعار غريبة عن هذه الحالة النورانية التى ذاقها . . فنراه يقول :

صفا جسدى حتى بدا منه قلبه وشف إلى أن بان ما فيه من سر

فغيب سر القلب قلبى وقالبى كما غاب لون الماء والكأس فى الخمر

ويقول :

فصار بسط الورى بقبضى والخلق والأمر فى كيانى

فلا وجود سوى وجودى وكل باق سواى فانى

ويقـــول :

أصبحت فى الكـــون بـــلا حَيِّز ... وكل ما فى الكون فى حيزى
وخـــارج العـــالم فى داخـــلى ... وقـــدرة القـــادر فى مَعْجـــزى
فأين أهـــل الأيـــن فى دارتى ... والفلك الأطلس فى مـــركزى

ويقول عن محاورة غريبة مع ربه :

ولقد باســـطنى فى خلـــوة ... أصبح البسط بهـــا فى قبضتىّ
فشهدت النشـــأة الأولى بهـــا ... فانتفى عنى المـــرا فى نشأتىّ
وتفاوضـــنا حديثاً حســـدت ... كل أعضـــائى عليـــه أذنىّ
قلت هل عودا لأعياد الصفا ؟ ... قال كى تقضى وتقضى أجـــلَىّ
قلت كى تشتفى الآلام من جسدى ؟ ... يشفى فؤادى ؟ . . قال كَىّ
قلت بعد القرب ما أبعدنى عنك . . ؟ ... قال الشـــك والـــرد عَـــلَىّ

وما ورد فى كتب الصوفية من أشعار ومواجيد عن هذه الحالة كثير . . وتواتره وتشابه ما فيه من أوصاف يدل على أن هذه الحالة من القرب من الله تصاحبها نشوة عظمى بالفعل . . وإن هذه النشوة تذهب اللب وتسلب العقل وتخرج العارف عن صوابه .

والنظرة السليمة إلى هذا التراث الشعرى . . أن نقرأه كوجدانيات لا كحقائق عرفانية . . إذ لا توجد لغة متاحة ولا عبارات تسمح بأى وصف عرفانى حقيقى . . فالموقف قد تجاوز قدرة الحرف والرمز والمجاز والإشارة . . وبلغ حالة البهت والذهول .

ونحن لا نحاسب العاشق محاسبة علمية عرفانية حينما يقول لحبيبته فى لحظة وجد . . أنا أنت . . كما وأننا لا نحاسب الشاعر حينما يقول . .

شعرت أنى عصفور . . أو أنى شمس أو أنى جبل .

ومشكلة الصوفى أنه فنان إلى جانب كونه رجل دين . . وهو بحكم تكوينه الوجدانى شاعر وأديب وصاحب خيـــال وعاشق له بدوات . . وهو أحياناً فيلسوف أيضاً مثل ابن عربى . . وهذا سر الكثير من الغموض والشطح والاستشكالات المعضلة فى كتب الصوفية .

والقارئ يجد نفسه فى أغلب الحالات أمام موازين ذوقية لا موازين علمية وأمام أمور لا تفهم إلا مكابدة .

ولهذا سوف تظل كتب الصوفية رسائل خاصة أشبه بالرسائل الشفرية يتخاطب بها قوم من أهل الأذواق والمواجيد إلى خاصتهم ممن يفهمون عنهم الإشارات والرموز .

اسمع من المكزون يروى لك الوسيلة التى وصل بها إلى الله فيلخص أسرار الطريق فى كلمات .

« خوف من عالم الحس ومحاربة لشيطان النفس وقرع بيد الإخلاص من أبواب اللطف الخفى » .

ما هو ذلك القرع بيد الإخلاص . وما أبواب اللطف الخفى .

تلك لغة القوم العالية الجميلة التى لا يفهمها إلا من كابد مثلهم وأحب مثلهم .

وما أجملها من لغة وما أحفلها بالظلال والمعانى والأغوار البعيدة والهمس الحميم الموحى .

جعلنا الله من أهل هذا الحب السامى ومن أهل تلك الأشواق الرفيعة القدسية .